

ترجمة آية: (يا أرض ابلعي) أهي ضياع وربح أم محض ضياع؟

د.حسين أحمد حسين كنانة، جامعة آل البيت - الأردن

د.عبد الحميد زاهيد كلية الآداب - مراكش، المغرب

ملخص:

اعتمدنا في مناقشة مفهومي (الضياع والربح) على تصور المفكر والفيلسوف طه عبد الرحمن الذي ميز بين القول الثقيل (الكلام الإلهي) والقول الخفيف (الكلام البشري). إن المفاهيم الترجيحية التي تحكم القول الخفيف ليست بالضرورة صالحة للكلام الإلهي، إن أشكال الضياع في ترجمة القول الخفيف هي أشكال ربح في لغة الهدف. إن الضياع الترجيحي في القول الخفيف ليس ضياعا بمفهومه المطلق، بل هو ضياع سرعان ما يتحول إلى ربح في لغة الهدف سعيا وراء تحقيق التماثل؛ أما الضياع في ترجمة القول الثقيل فهو محض ضياع، لا تقدر لغة الهدف على تعويضه، وأقصى ما تقدر عليه هو نقل بعض من معانيه في لغة تحفيزية تحفز القارئ الهدف إلى الرجوع إلى القرآن لتدارك ما فاتته منه في لغة الهدف.

مقدمة:

إن خصوصية القرآن الإعجازية جعلت منه كتابا وحيدا في لغته وأسلوبه وبلاغته ونظمه، عجز الخلق عن محاكاته والإتيان بمثله. إن هذه الخصوصية تستلزم بناء نظرية ترجمية خاصة بكتاب الله، كما تستلزم أيضا مترجما من نوع خاص. ونعتمد في هذا التصور على طرح المفكر والفيلسوف طه عبد الرحمان في تمييزه بين القول الثقيل والقول الخفيف. فالقول الثقيل في تصوره قول إلهي، والقول الخفيف قول

بشري، والمفاهيم الترجيحية التي تحكم الكلام البشري ليست بالضرورة صالحة للكلام الإلهي.

نظرية الترجمة والقرآن الكريم:

إن النص المترجم للكلام البشري قد يغنيك عن الأصل، ولكن النص المترجم للكلام الإلهي لن يغنيك أبدا عنه. فقد تقرأ رواية مترجمة تغنيك عن قراءتها في لغة المصدر، ولكن قراءة معاني القرآن مترجمة لن تغنيك عنه أبدا.

واعتبارا مما سبق ذكره، وجب إعادة النظر في المفاهيم الترجيحية ومدى صلاحيتها وفعاليتها في نقل النص القرآني. ونسوق مثلا لذلك نظرية المعادلة التفاعلية Nida (1969) (Dynamic Equivalence) التي تسعى إلى تحقيق استجابة لدى القارئ الثاني تكون شبيهة باستجابة القارئ الأول. إن هذه المعادلة لا تصلح أن تكون إطارا معرفيا، واستراتيجية لدى المترجم في نقل معاني القرآن الكريم، ولكنها صالحة في نقل الأعمال البشرية، وقد يتوفق المترجم في تحقيقها، فتكون معيارا لجودة ترجمته. ونسوق مثلا على ذلك مقطعا من رواية (الشيخ والبحر) لارنست هيمنغواي.

Source texte :

He looked across the sea and knew how alone he was now. But he could see the prisms in the deep dark water and the line stretching ahead and the strange undulation of the calm. The clouds were building up now for the trade wind and he looked and saw a flight of wild ducks etching themselves against ahead the sky over the water, then blurring, then etching again and he knew no man was ever alone on the sea.

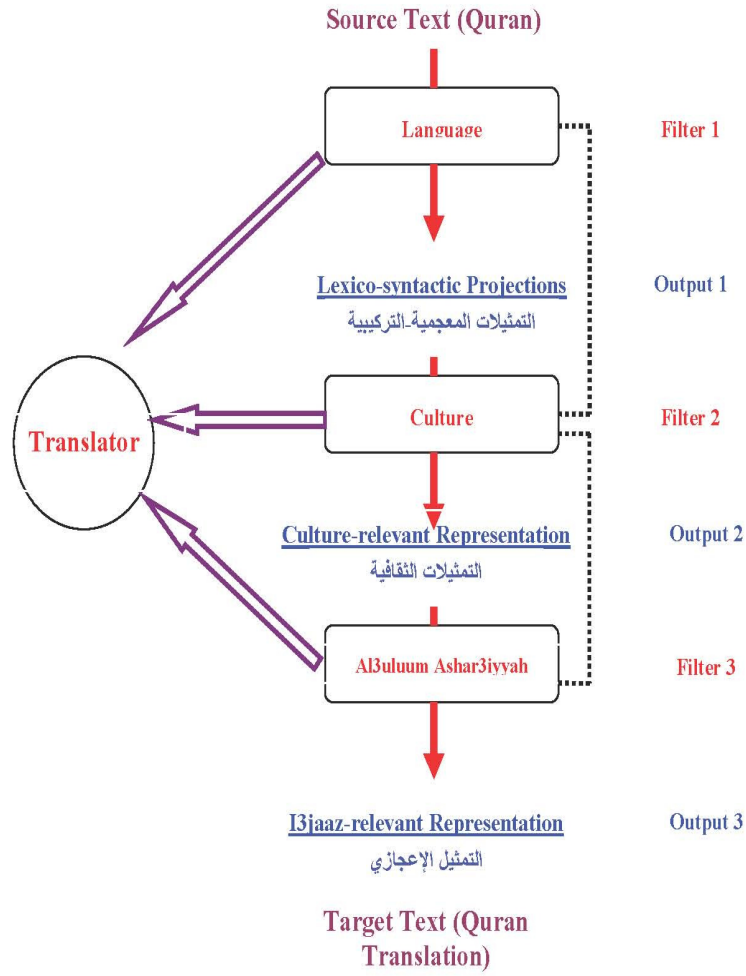
Target text :

نظر الشيخ إلى البحر، فوجد نفسه وحيدا في ظلمة حالكة لا يرى من خلالها إلا مواشير الضوء المنعكس على الماء القاتم، والحبل المترامي الأطراف، وتموجات الصمت

الغريبة. تجمعت السحب إيدانا هبوب الريح التجارية، ونظر العجوز أمامه فرأى سربا من البط البري ينحت سواقى على صفحة المياه الزرقاء، ثم سرعان ما يستوي الماء لينحت الإوز سواقى جديدة، فيستوي الماء ثانية، ويدرك الشيخ أنه لم يعد وحيدا في عزلته بل هو وسط مسرح من الأحداث.

إن المعادلة التفاعلية ممكنة في الكلام البشري ولكنها مستحيلة في الكلام الإلهي. ولذلك اقترحنا في مقال بعنوان: (نحو بناء نظرية بيانية لترجمة القرآن الكريم)، أن ما ينسجم مع النص القرآني هو ما يمكن تسميته بـ: (المعادلة التحفيزية)، حيث تكون الترجمة محفزا للرجوع إلى الأصل، لأن المعادلة التفاعلية لن تتأتى إلا مع الأصل وفي لغة الأصل عكس ما رأيناه في نص رواية (الشيخ والبحر) حيث المعادلة التفاعلية تتحقق مع (القارئ الأصلي) و (القارئ الهدف) على حد سواء.

أما المترجم، فليس كما ساد في نظرية الترجمة (Nida1964 , Nord 1991, Fawcet1997, Basil 2000) أن على المترجم أن يكون ثنائي اللغة والثقافة، وذلك لأن الأمر يتجاوز اللغة والثقافة. ففهم القرآن وترجمته، على حد سواء، يتطلب مطالبا لا يمكن تجاوزه، وهو مطلب العلوم الشرعية الذي به يستكشف المترجم خبايا النص القرآني وما استتر منه لينقله إلى لغة الهدف. فعلى مترجم القرآن أن يكون ملما بلغة القرآن وعلومها، وعبادة العرب وثقافتها، وبالعلوم الشرعية التي تعتبر مفاتيح النص القرآني، وعليها المعول في فهم القرآن وترجمته. والرسم الآتي يوضح شروط المترجم.



الضياح والربح (*loss and gain*):

يعرف (1992) *sandor* الضياح بقوله: « نخصص مفهوم الضياح الترجمي (*translation loss*) للتماثل المفقود بين (النص الأصلي) و (النص الهدف). إن

الضياع الترجمي حتمية في عملية الترجمة وذلك لضياع المكونات الثقافية للغة المصدر في لغة الهدف. يجب ألا يُؤرق مفهوم (الضياع الترجمي) المترجم في عملية الترجمة، بل عليه أن يعكف على التقليل والتخفيف من أثره، وذلك بتوجيهه والتحكم فيه¹. ويضيف (2002) Dickiens، إن الضياع الترجمي هو عبارة عن «نسخة ناقصة للنص الأصلي في لغة الهدف»².

إن الضياع الترجمي في عملية الترجمة ليس ضياعا بمفهومه المطلق، وإنما هو ضياع سرعان ما يتحول إلى ربح (gain) في لغة الهدف. تقول Bassnette (1996): «إن مقارنة مفهومي (الضياع والربح) في عملية الترجمة مرتبط باستحالة التماثل بين لغتين. إن ما أخذه مفهوم الضياع من مناقشة عند المهتمين أثناء نقل النص الأصلي من لغة المصدر إلى لغة الهدف هو علامة أخرى من علامات أزمة الحقل الترجمي، إذ يتم إغفال ما يمكن للنص المترجم أن يربحه من لغة المصدر وذلك أن المترجم يكون مضطرا إلى إغناء النص الأصلي وتوضيحه في لغة الهدف باعتباره نتيجة للعمل الترجمي؛ إضافة إلى ذلك، أن ما يمكن اعتباره (ضياع) من لغة المصدر يمكن تعويضه في لغة الهدف»³.

إن أشكال هذا الربح يتعدد بتعدد اللغات، ويختلف باختلاف طبائعها ويحدد (1992) sandor بعض أنواع الربح الذي تكتسبه لغة الهدف من الضياع الذي لحق بلغة المصدر في: الإيجاز في التعبير، وشعرية الأسلوب، وتفادي الغموض، وتوسيع الحقل الدلالي أو تضييقه⁴.

ويضيف (2002) Dickins متحدثا عن الربح الترجمي (Translation gain) أنه قد يكون ذا طبيعة نحوية، وفي بعض الأحيان، أن أسلوب لغة الهدف قد يكون أجمل وأسهل في التعبير من لغة المصدر⁵. ويخلص Dickins قائلا: إن كل أشكال «الربح هي أمثلة لأشكال الضياع في لغة المصدر»⁶.

إن المترجم، كما يقول (1992) sandor، يسعى في عمله الترجمي أن يرحح كفة الربح على كفة الضياع؛ وذلك لأن المعادلة (Equivalence) تعد الدرجة الصفر في الترجمة، و(الربح) قيمة إضافية في النص المترجم و(الضياع) قيمة سلبية في النص الأصلي⁷.

ولكن ما السبيل إلى تفادي (الضياع) في عملية الترجمة؟ السبيل إلى ذلك كما يجب (1992) sandor هو: « تفادي الجنوح المطلق لتحقيق التماثل بين لغة المصدر ولغة الهدف، في مقابل طموح معقول لتقليل الاختلافات، وذلك بأن يركز المترجم اهتمامه على ما يمكن أن يحتفظ به من لغة المصدر على حساب ما يمكن أن يضمه في النص الهدف»⁸. إن ما يترتب على اختيار أحد طرفي معادلة (تحقيق التماثل) و(تقليل الاختلافات)، أن المترجم باختياره تحقيق التماثل هدفا استراتيجيا في ترجمته يقع بين ضفتي الضياع و الربح: ضياع من النص الأصلي و ربح في النص الهدف. أما باختياره الطرف الآخر من المعادلة (تقليل الاختلافات)، فإن المترجم كما يقول (1992) sandor: «دخل مشوارا لا متناهيا، ولهذا نجد من المترجمين من يعكف على ترجمة نص بعينه مرات عديدة دون أن يكون راضيا عن ترجمته»⁹، فتكون الترجمة بهذا المعنى هي قراءة لقراءة النص الأصلي.

هل يمكن الحديث عن الضياع والربح في ترجمة القرآن الكريم؟ هو سؤال أردنا من خلاله أن نبين أن ليس كل ما يروج في نظرية الترجمة صالحا لترجمة القرآن الكريم، وذلك أن الآليات النظرية في علم الترجمة تصلح للكلام البشري، وليست بالضرورة صالحة للكلام الإلهي. إن المعادلة في ترجمة الكلام البشري يمكن تحقيقها بطرق مختلفة، عن طريق الرغبة الجارحة في تحقيق التماثل بين النص الأصلي والنص الهدف؛ وبالرغم من الضياع الذي قد يلحق بالنص الأصلي، فالمترجم الماهر قادر على تعويض ذلك بربح ترجمي في لغة الهدف، تجعل النص المترجم محافظا على جوهره ولكن بحلة تتماشى مع لغة الهدف. فتكون الترجمة في هذا السياق قراءة كباقي القراءات الممكنة.

ترجمة آية : (يا أرض ابلعي) أهي ضياع وربح أم محض ضياع

قراءات

ولكن، هل يمكن أن نقبل بأن تكون ترجمة القرآن قراءة كباقي القراءات الممكنة في القول الخفيف؟

إن على أية قراءة للنص القرآني ان تكون ملتزمة بالضوابط اللغوية والثقافية والشرعية، وأن تكون قراءة لا ترتبط بالفرد وإنما بشبكة من العلوم التي تحاول فهم النص القرآني. إن تحقيق التماثل في ترجمة معاني القرآن الكريم أمر مستحيل وغير وارد، فالمماثلة لم تتحقق بلغته في عهد الترتيل، فكيف لها أن تتحقق بلغة الهدف؟

على المترجم أن يسلك مسلك تقليل الاختلافات في ترجمة معاني القرآن الكريم، وذلك بالاحتفاظ ببعض معانيه في لغة الهدف، والنظر ملياً في خصوصيته القدسية والإعجازية، وأن يرجح من بين المعاني، معاني يحتفظ بها في لغة الهدف، وأن يرجع إلى العلوم اللغوية والشرعية التي حاولت فهم كتاب الله، وأن يقدم بعضاً من معانيه في لغة تحفيزية لا تفاعلية، وذلك لأن اللغة التفاعلية مستحيلة وغير مقدور عليها، وأما التحفيزية فلأن معانيه لا تدرك إلا في لغته وحدها.

ما الذي يميز ترجمة القرآن عن باقي النصوص المقدسة الأخرى؟

رسم (1991) Nida نمجاً لترجمة الإنجيل قائلاً: إن على المترجم أن يقدم «في لغة الهدف نصاً معادلاً في معناه وأسلوبه يكون أقرب إلى التماثل من النص الأصلي»¹⁰. وإذا كان هذا هو نمج ترجمة الإنجيل، فالأمر ليس كذلك بالنسبة إلى القرآن الكريم. فلن تستطيع أي ترجمة الإحاطة بمعناه، كما لن تستطيع أي ترجمة مضاهاة أسلوبه، سواء في لغة المصدر أو في لغة الهدف على حد سواء. وأقصى ما يمكن للمترجم فعله في ترجمة معاني القرآن الكريم نقل بعض من معانيه في لغة لا تروي ظمناً القارئ الهدف. وسنبين فيما يلي من المقال، أن مفهومي الضياع والربح، إن كانا صالحين في ترجمة الكلام البشري وترجمة الإنجيل حسب ما أورده Nida، فهما غير صالحين في ترجمة الكلام الإلهي. فالمفهوم الترجمي الذي يحكم ترجمة كتاب الله هو الضياع لا غير، دون أي ربح يذكر في لغة الهدف.

وإذا ثبت ما قلناه، فإن مفهوم الضياع لن يبقى مشكلا تطبيقا، كما هو الشأن في نظرية الترجمة، بل يصبح مشكلا نظريا وتطبيقيا في ترجمة كتاب الله.

الضياع في ترجمة آية (يا أرض ابلعي):

(وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) [هود، 44]

Yusuf Ali Then the word went forth: "O earth! swallow up thy water, and O sky! Withhold (thy rain)!" and the water abated, and the matter was ended. The Ark rested on Mount Judi, and the word went forth: "Away with those who do wrong!"

Hilali-Khan And it was said: "O earth! Swallow up your water, and O sky! Withhold (your rain)." And the water was diminished (made to subside) and the Decree (of Allah) was fulfilled (i.e. the destruction of the people of Nuh (Noah). And it (the ship) rested on Mount Judi, and it was said: "Away with the people who are Zalimun (polytheists and wrong-doing)!"

Khalifa It was proclaimed: "O earth, swallow your water," and "O sky, cease." The water then subsided; the judgment was fulfilled. The ark finally rested on the hills of Judea. It was then proclaimed: "The transgressors have perished."

(وقيل):

قدم الله عز وجل في الآية الكريمة (قيل) معطوفة لأنها الأصل ولا موجب لتأخيرها، وقد جاء فاعلها محذوفا تعظيما له، وليكون للعقل تصرف في الاهتداء إلى تعيينه، فيكون أعلق بالطبع وألذ للنفس¹¹.

وقد حذت الترجمات الإنجليزية حذو التركيب العربي في النظم، إلا أن ترجمة (قيل) — (say) أو (proclaim) فيها ضياع كبير لمعنى القول في العربية الذي يفيد اللفظ المركب من الحروف، المستعمل مفردا كان أو جملة، المبرز بالنطق حسب ما أورده الراغب¹². فكلمة (say) في الإنجليزية تحتمل المنطوق والمكتوب، إضافة إلى ذلك، فإنها فارغة من محتوى الأمر التي تتضمنه (قيل) في الآية الكريمة. أما كلمة (proclaim) ففيها ضياع كبير لمعنى القول في الآية وبعيدة كل البعد عن السياق. وتبقى ترجمة يوسف علي (the word went forth) أقرب إلى سياق الآية، لما تتضمنه من معنى الأمر. إلا أن الضياع الحاصل هنا هو صيغة المبني للمجهول التي تعتبر مظهرا من مظاهر إعجاز الآية، وذلك لأن القائل محذوف وعظمته وتفرد بالأمير يغنيان عن ذكره.

(يا أرض ابلعي ماءك):

استعملت (يا) من بين أدوات النداء، وهي حرف موضوع لنداء البعيد حقيقة أو حكما، والمسوغ هنا هو بعد رتبة المنادي عن المنادى¹³. كما استعملت (أرض) بالضم دون الكسر بإضافتها للمتكلم على خلاف لفظة (الروح) في قوله تعالى: "ونفخت فيه من روحي" (الحجر: 29) حيث جاءت (الروح) مضافة إلى ياء اسم الجلالة؛ والوجه بينهما أن الروح أقرب إليه عز وجل من الأرض، ولذلك جاءت غير مضافة¹⁴.

أمر الله عز وجل الأرض بقوله (ابلعي) وهو الزرد: يقال بَلَعَ اللقمة يريدون بذلك سرعة نزولها من الحلقوم من غير مضغ ولا علك¹⁵، ولم يستعمل الله عز وجل اشربي، وتشربي ونشفي، واذهي، وذلك لأن هذه الألفاظ لا تؤدي معنى ازدراد اللقمة دفعة من غير توقف، وذلك ليرجع الماء غائرا في عيون الأرض تبتلعه بأسرع وقت، أضف إلى ذلك حسن الجناس بين (ابلعي - أقلعي)¹⁶.

أما الماء، فقد جاء مضافاً إلى الأرض فقال: (ماءك) ولم يقل: الماء، ذلك لأن ماء الطوفان ماآن: ما نبع من الأرض وما نزل من السماء. أمر الله عز وجل الأرض بأن تتلع ماءها إعلاماً بقدرة الخالق على تمييز كل من المائين بعد اختلاطهما¹⁷. ولو قال الماء للزم ابتلاع المياه كلها، إذ المراد الماء الزائد على المعهود الذي كان سبباً في الطوفان¹⁸.

جاءت الترجمة الإنجليزية للآية الكريمة حرفية في اللفظ والمعنى، فضاعت معان كثيرة وعجزت لغة الهدف عن نقلها. فقد ترجمت (يا) النداء للبعيد بـ (O) الفاقدة لخصوصية التمييز بين القريب والبعيد، فضاعت النكتة البلاغية في استعمال (يا) التي جعلت المنادي أعلى رتبة من المنادي. كما استعمل الفعل (swallow up) لترجمة (ابلعي). فجاء الفعل الإنجليزي ناقلاً للحدث دون دلالاته العميقة في الآية، فترتب عن ذلك ضياع أمرين: أولهما ضياع المعنى الاستعاري¹⁹، إذ الأصل في البلع للحيوان فاستعير للأرض، وثانيهما ما يحمله البلع من سرعة نضوب ماء الأرض، وهو أمر لا يؤدي معناه أي فعل آخر. كما لا يقدر عليه أي فاعل آخر؛ فالأمر كله كن فيكون، وأما البلع فلتنقيب سرعة الإنجاز لا غير.

وجاءت لفظة (ماءك) في الترجمة الإنجليزية تارة بدون ضمير الخطاب (thy water) وتارة به (your water). فأما الأولى، فقد أضاعت المغزى القرآن؛ وأما الثانية، فترجمة لفظية غير مستوعبة لدلالة الكاف التي تفيد الماء الزائد على المعهود والذي كان سبباً في الطوفان.

(ويا سماء أقلعي)

جاءت هذه الآية الكريمة متناغمة في النظم مع الآية التي قبلها. والقول في (يا سماء) كالقول في (يا أرض)؛ فجاء الفعل (أقلعي) متجانساً مع (ابلعي) ليخلق إعجازاً صوتياً تعجز لغة الهدف عن الاحتفاظ به.

ترجمة آية : (يا أرض ابلي) أهي ضياع وربح أم محض ضياع

ولكن لماذا استعمل الله عز وجل (أقلعي) ولم يستعمل فعلا مشابها له؟²⁰ والجواب هو أن المقصود هو الإقلاع لا غيره، فالإقلاع هو الإمساك بحيث يذهب وينقطع أصلا، فتقطع السماء عن الإرسال؛ بخلاف الإمساك الذي هو التوقف الذي يفيد الاستئناف. وإذا قارنا بين الآيتين الكريميتين:

- يا أرض ابلي ماءك

- ويا سماء أقلعي.

يلاحظ ذكر المفعول به (ماءك) في الأولى لعدم دلالة (ابلي) على خصوصية الماء. ولو حذفه لاستلزم ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجيال والتلال والبحار وغير ذلك؛ أما الثانية، فقد حذف فيها المفعول به، وحذفه لا يخلق أي التباس، إذ ليس للسماء غير صنف واحد من المياه²¹.

وبخصوص ترجمة الآية الكريمة، فما قلناه عن (يا أرض) نقوله عن (يا سماء)؛ أما ترجمة (أقلعي) ب (withhold) و (cease) ففيه ضياع كبير للوجه الإعجازي؛ فالفعلان الإنجليزيان يفيدان التوقف القابل للاستئناف، في حين، أن الأمر الإلهي يفيد الإقلاع الذي لا استئناف بعده حتى تنجو سفينة نوح من الفيضان.

(وغيض الماء)

جاءت لفظة (غيض) مبنية للمجهول حتى تنتظم في سلك (قيل) التي قبلها و(قضي) التي بعدها ليخلق هذا النظم تناغما صوتيا في أعلى مراتب الإعجاز. أضف إلى ذلك هذه النكتة البلاغية التي لم يصرح فيها بمن غاض الماء، ومن قضى الأمر، وسوى السفينة. كما لم يصرح فيها بقائل يا أرض ويا سماء في صدر الآية على سبيل الكناية، وذلك لأن تلك الأمور لا تتأتى إلا من قدير²².

أما (الماء) فقد جاء محلي ب(أل) للمعهود الذهني، وذلك كما أورده الطيبي أنه لو حمل على العموم لزم ذهاب المياه كلها لورود الأمر وصدور الحكم الرباني²³. وهذا ما يفسر ورود الماء بالمفرد وليس بالجمع. فلو قال: (وغيضت المياه) لتناول جميع المياه

فوق الأرض، وليس الأمر كذلك، بل إنما غاض (ماء السماء) حسب ابن الجزري،
و(ماء الطوفان) على تقدير صاحب الكشف²⁴.

ترجمت (غيض) في الآية الكريمة بالأفعال التالية (abate)، (diminish) و(subside) وكلها تشير إلى انخفاض ونقص في حركة الشيء. إن معنى النقص الذي تحيل إليه الأفعال الانجليزية هو جزء من معنى (غيض). فقد ورد في اللسان: غاض الماء: غار فذهب، وفي الصحاح قل فنضب²⁵. إن معنى غور الماء ونضوبه غير متضمن في الترجمة الانجليزية. فالماء لم ينقص فوق الأرض، وإنما نقص حتى غار في الأعماق امتثالا لأمره عز وجل (يا أرض ابلعي ماءك).

أما (الماء) فقد ترجم بمقابله اللغوي لا غير، وقد ضاع من النقل دلالات كثيرة: فقد ضاعت دلالة (أل) للمعهود الذهني التي تميز الماء الزائد والذي كان سببا في الطوفان، كما ضاعت دلالة الأفراد التي تفيد ماء الطوفان وأن ليس المقصود المياه التي يحتاجها الإنسان لحياته، فـ (water) لا تحمل في بنيتها ما يميز بين الأفراد والجمع مما أضاع البعد الإعجازي للآية الكريمة.

(وقضي الأمر)

والقول في (قضي الأمر) كالقول في (غيض الماء)، حيث جاء الفعل منظوما على غرار (قيل، وغيض) وفي قالب صرفي متقارب، أضفى على الآية بهاء وجمالا.

أضف إلى ذلك الانسجام الصوتي، والموازنة الإيقاعية بين: (غيض الماء) و(قضي الأمر) من جهة، و(يا أرض ابلعي) و(يا سماء أقلعي) من جهة أخرى، وقد ساهم ذلك كله في جعل الآية في أعلى مراتب الإعجاز.

وقد حذف فاعل الفعل في الآية الكريمة للدلالة على أن تلك الأمور العظام لا تتأتى إلا من ذي قدرة لا يكتنه؛ كما جاءت الآية الكريمة كناية عن الفصل والحكم استجابة لدعاء نوح عليه السلام.

ترجم فعل (قضي) في الآية الكريمة تارة ب (end) وتارة أخرى ب (fulfil)، إلا أن الفعلين يعتريهما نقص كبير وضياع هائل لمعنى الحكم الإلهي المبثوث في ثنايا فعل (قضي). إن معنى الانتهاء المتضمن في الفعلين الإنجليزيين لا يتضمن معنى رفعت الأرقام وحفت الصحف كما في الأمر الإلهي، بل يتضمن معنى الانتهاء النسبي والقابل للتحدد في أي لحظة. أضف إلى ذلك، أن (الأمر) الإلهي ليس بوضعية عادية (matter) أو بحكم وضعي (judgment) أو بأمر إنساني (decree). ولهذا جاءت هذه الترجمات كلها تحمل في طياتها بعدا إنسانيا عاجزا عن نقل المشهد القرآني وما تعنيه (قضي الأمر) من عظمة الخالق وجلال قدرته.

(واستوت على الجودي)

أنجز الله ما وعد به نوحا فأهلك الظالمين على جبل الجودي، وسوى السفينة، وأنجى من ركبها من المؤمنين. فجاء فعل (استوت) محذوف الفاعل، إذ لو صرح به لكان تطويلا بلا فائدة، ثم للعلم به، وأن لا أحد غيره قادر على ذلك. ولكن لماذا استعمل الله سبحانه وتعالى (استوت) ولم يستعمل ألفاظا أخرى من نفس الحقل الدلالي كاستقرت أو رست مثلا؟ والجواب على ذلك كما أورده ابن الجزري، أن (استوت) تدل على جميع تلك الأفعال وزيادة، كما تدل على الاستقرار والسلامة والاعتدال؛ كما قال الله تعالى: (لستوتوا على ظهوره) [الزخرف: 13] أو قوله تعالى: (فاستوى على سوقه) [الفتح: 29]. والمعنى أنها استقرت على جبل الجودي، فلم يصبها ما يصبب السفن المشحونة إذا رست. ولماذا لم يقل الله عز وجل (رست) علما بأنها مخصوصة بالسفن؟ يقولون: رست السفينة إذا ثبتت ووقفت على المراسي. والجواب عن ذلك: أن الرسو مخصوص بالماء، أما الاستواء فعلى الجبل²⁶، وبنجاة وسلامة المؤمنين من الطوفان تستلزم استواء السفينة. فجاء فعل (استوت) معجز في نظمه ومعناه، ومعبر عن أدق المعاني المقصودة معنى لا يتأتى إلا لـ (استوت) دون غيرها من الألفاظ.

أضف إلى ذلك، أن الله عز وجل قال: (الجودي) ولم يقل: (جبل الجودي)؛ والجواب كما يذكر ابن الجزري: أن هذه الأسماء أعلام، فلو قيل: على جبل الجودي، لكان من إضافة الشيء إلى نفسه وهو تطويل بلا فائدة، والمقام مقام اختصار. كقوله تعالى: (ونادينا من جانب الطور) [مریم 52].

ترجم فعل (استوت) في الآية الكريمة ب (rest) الذي يعني التوقف والارتقاء والانتكاء. وكل هذه المعاني تحوم حول فعل (استوت) دون أن تلامس جوهره والمقصود منه. فالانتكاء باعتباره معنى من معاني (rest) لا ينسجم مع (استوت)؛ فالسفينة لم تتكأ على الجودي، وإنما استوت عليه، وهو أكثر تعبيراً عن السلامة والنجاح. فدرجة السلامة في الانتكاء أقل من الاستواء. وكذلك الأمر بالنسبة للارتقاء المتضمن في معاني (rest). فليس المقصود ارتقاء السفينة أو ركبها، وإنما المقصود نجاحهم من الطوفان، وهو ما لا توحى به اللفظة الإنجليزية. وهكذا ضاعت المعاني العميقة للاستواء، واكتفت الترجمة بنقل المعنى العباري لا غير.

أما (الجودي) فليس بمضبة (hill) كما ورد في إحدى الترجمات وإنما هو جبل. وفي القرآن الكريم ورد اسمه دون إضافته. وأما ترجمته بالإضافة في الإنجليزية، فقد أفقدت معنى الآية المترجمة بإيجازها ونظمها المعجز.

(وقيل بعدا للقوم الظالمين)

بدأت الآية الكريمة بفعل قيل مبني للمجهول لتتنظم في سلك (قيل- غيض- قضي)، فخلقت بذلك انسجاماً وتناسقاً لفظياً في أعلى مراتب الإعجاز. أضف إلى ذلك، أن فاعل هذه الأفعال هو الذي قال للأرض بأن تبلع، وقال للسماء بأن تقلع، وأمر الماء بأن يغيض، وهو الذي قضى أمره. فجاء حذف الفاعل انسجاماً مع نظم الآية الكريمة، فعظمتته ووحدانيته تغنيان عن ذكره.

خاطب الله عز وجل القوم الظالمين ب (بعدا)، واللفظة مأخوذة من بعد إذا تباعد فهو بعيد²⁷، ويضيف السكاكي أن التعبير القرآني اختار المصدر طلبا لتأكيد معنى الفعل بالمصدر مع الاختصار، وهو نزول (بعدا) وحده متزلة (ليبعدوا بعدا)، وقد اختصت (بعدا) في كلام العرب بدعاء السوء، وأن مصير الظالمين الهلاك والموت²⁸. وتساءل ابن الجزري: لماذا قال الله عز وجل (بعدا) وليس (طردا) أو (هلاكا)؟ والجواب عن ذلك: أن (بعدا) وقعت موقع التورية التامة إذ تتضمن المعنيين معا (الطرد والهلاك)²⁹، وجزاء الظالمين الطرد والهلاك. وتحقق هذا المعنى لا يتأتى إلا في (بعدا) دون غيرها. فيكون قوله تعالى: (وقيل بعدا) كناية عن إهلاك الظالمين.

وسمى الله عز وجل هؤلاء الظالمين ب(القوم). والقوم في اللغة مخصوص بالرجال دون النساء، وربما دخل فيه النساء على طريق التبعية، لأن قوم كل نبي رجال ونساء³⁰. كما جاءت لفظة (القوم) في القرآن الكريم مقرونة باللام (للقوم) لتقوي العامل الضعيف. ولكن، لماذا قال الله عز وجل القوم في (بعدا للقوم الظالمين) ولم يقل الناس؟ والجواب عن ذلك كما أورده ابن الجزري: أن القوم حيث ورد الإخبار عنهم مطلقا كان المراد به المخالفين لنبيهم الخارجين عن طاعته والجهلة الطغام، كقوله تعالى: (فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط) [الحج 43]، أما (الناس)، فحين وردت في القرآن يراد به الفضلاء الأكياس كقوله تعالى: (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) (البقرة: 13)، فتعني حينئذ أن يذكر هنا القوم دون الناس وغيره مما لا يقوم مقامه³¹، فوصف الله عز وجل هؤلاء القوم ب (الظالمين)، وذلك أن جزاءهم جاء نتيجة ظلمهم، كما أخبر الله عز وجل في الآية (37) من سورة هود. (ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون)، فجاءت كلمة (الظالمين) هنا لتناسب (ظلموا) في الآية السابقة³².

أما عن ترجمة هذه الآية، فلم تستطع أي منها أن تنقل الدلالات العميقة التي تحملها ألفاظ الآية الكريمة. فقد اعترى الترجمة الإنجليزية ضياع هائل، ضياع يعزى إلى المترجم ولغة الهدف في آن واحد. فقد غابت عن المترجم دلالات لا تدرك من المعنى العباري

للآية، مما جعل ترجمته لا تتعدى المعنى السطحي للآية. كما يعزى الضياع الهائل إلى لغة الهدف أيضاً، وذلك أن رحم ألفاظها يضيق عن حمل معاني القرآن الجليلة. فقد ترجمت (بعدا) ب (away with) وهي ترجمة ضعيفة أضعفت معاني كثيرة من الأمر الإلهي. فليس المعنى فقط أمراً بالذهاب أو بالإبعاد كما هو حال اللفظة الإنجليزية؛ وإنما هو أمر العزيز القدير بطرد قوم نوح وإهلاكهم جزاء بما كانوا يفعلون. فمن يقرأ (away with) لا يلمس جلاله وعظمة المشهد، وإنما هو وصف عادي لا يتجاوز الحياة العادية للناس.

أما كلمة (قوم) وما تحمله من خصوصية في الاستعمال القرآني، فإن لغة الهدف عاجزة عن إيجاد مقابل لها، ولذلك نجد ترجمتها في اللغة الإنجليزية تارة باسم إشارة (those)، وتارة (people) وتارة محذوفة، فضعف معنى الجهلهة مقابل الأكياس الخيرين.

خاتمة:

نخلص مما سبق ذكره في ثنايا المقال أن ترجمة الكلام الإلهي تختلف كثيراً عن ترجمة الكلام البشري: فالكلام الإلهي قول ثقيل معجز، والكلام البشري كلام خفيف غير معجز. فالأول محاكاته مستحيلة، والثاني ممكنة. ولذلك وجب التفكير في بلورة نظرية ترجمة خاصة بكتاب الله، تراعي خصوصيته الإعجازية، وتنطلق منه لتعود إليه، قصد تحفيز (القارئ الهدف) على ضرورة العودة للغة الضاد لتمثل ما تعجز لغة الهدف عن نقله.

إن معظم مفاهيم نظرية الترجمة صالحة وعملية في نقل الكلام البشري، لكنها عاجزة عن ذلك في الكلام الإلهي. إن مفهومي (الربح والضياع) (Loss and gain) مثيران ومجديان في ترجمة الكلام البشري ومفلسان في الكلام الإلهي. وقد أثبتنا في ثنايا هذا المقال، أنه لا يمكن الحديث في ترجمة القرآن الكريم إلا عن (الضياع) وحده دون أي (ربح) في لغة الهدف. فعلى لغة الهدف في أحسن الأحوال أن تنقل المعالم الكبرى

بقارئ لغة الهدف لتحفيزه على العودة إلى لغة القرآن ليتدارك الضياع الهائل الذي يعتري عملية النقل. ونلخص فيما يلي أنواع الضياع في الآية الكريمة.

الضياع الصوتي: لم تستطع الترجمة الإنجليزية أن تنقل الانسجام الصوتي الذي خلقتة الأفعال المبنية للمجهول (قيل-غيض- قضي- قيل)، والجملتان الندائيتان (يا أرض ابلعي- يا سماء أقلعي)، كما ضاع في عملية الترجمة أيضا البعد الصوتي للجناس في (ابلعي- أقلعي) والذي أضاف موازنة صوتية زادت من روعة الجملتين الندائيتين، كما ضاعت تلك السلاسة والانسياب التي يحس بها المرء وهو يقرأ أو يرتل أو يجود آية (يا أرض ابلعي).

الضياع النظمي: يعد نظم القرآن سر إعجازه، وضياع النظم يضيع الإعجاز، ولهذا فإن إعجاز القرآن لا يمكن نقله لارتباطه بلغة التتريل. إن فصاحة هذه الآية وبلاغتها وإعجازها مرتبط بنظمها في لغة التتريل، فلو أخذت الكلمات نفسها وغيرت مواقعها داخل النظم زال ذلك الحسن والجمال³³، فما بالك عند ترجمتها حين يضيع النظم ومعاني النظم.

الضياع الدلالي: أثبتنا في ثنايا المقال، أن دلالات كثيرة ضاعت في عملية الترجمة، ويعزى هذا الضياع تارة إلى المترجم، لقصور إلمامه بالعلوم اللغوية والشرعية، ولهذا دعونا وشرعنا في إنجاز بنك بياني لآيات الذكر الحكيم، نستجمع فيه من مختلف العلوم اللغوية والشرعية التي حاولت فهم القرآن الكريم ما يعين المترجم على تمثل مراد الله. كما يعزى الضياع تارة إلى لغة الهدف التي لا تحتوي على مقابلات لنقل معاني الأصل. كما هو الشأن في (يا)، (ابلعي)، (اقلعي) إلخ. دون أي ربح في لغة الهدف.

الضياع البلاغي: إن علم البلاغة بمعانيه وبيانه وبديعه حاضر في الآية الكريمة، إذ لم تحتفظ الترجمة الإنجليزية بأية ظاهرة من هذه الظواهر، فقد ضاعت كلها في عملية

النقل: فقد ضاع الجناس بين (ابلي - أقلعي)، كما ضاعت الاستعارات: (ابلي - أقلعي) والكنائيات: (الأرض)، (قضي الأمر)، (استوت)، ومعاني النحو: في (النداء) و(البناء للمجهول) و(الإضافة) و(الحذف) وضاع الإيجاز (معاني كثيرة في ألفاظ قليلة)، ولم تحتفظ الترجمة إلا بألفاظ معجمية تنقل الحدث في أحسن الأحوال. وبضياح كل ما سبق، يضيع ما تجلى لك من الآية من إعجاز، وما يبرك من الذي ترى وتسمع، وضاعت الروعة والهيبه اللتان تحيطان بك وأنت تقرأ الآية الكريمة.

الهوامش:

- 1 Thinking French Translation : p 21.
- 2 Thinking Arabic Translation : p 21.
- 3 Translation Studies : p 30
- 4 Thinking French Translation : p 23.
- 5 Thinking Arabic Translation : p 22.
- 6 Ibid : P22
- 6Ibid : p21
- 7 Thinking French Translation : p 23.
- 8Ibid : p21
- 9 Ibid : p20
- ¹⁰ Language Structure and Translation :p33

- ¹¹ الإشارات والتنبيهات: ص 228
- ¹² كفاية الألمي: ص 127
- ¹³ الإشارات والتنبيهات: ص 228
- ¹⁴ نفسه: ص 228
- ¹⁵ كفاية الألمي: ص 134
- ¹⁶ نفسه: ص 166
- ¹⁷ نفسه: ص 166
- ¹⁸ الإشارات والتنبيهات: ص 229
- ¹⁹ نفسه: 231
- ²⁰ كفاية الألمي: ص 166

-
- 21 الإشارات والتنبيهات : ص 229
- 22 مفتاح العلوم: ص 420
- 23 كفاية الأملعي: ص 138
- 24 نفسه: ص 169
- 25 لسان العرب: مجلد 7: مادة (غيض)
- 26 كفاية الأملعي: ص 181
- 27 مفتاح العلوم: ص 460
- 28 الكشف: المجلد الثاني: ص 271
- 29 كفاية الأملعي: ص 195
- 30 نفسه: ص 155
- 31 نفسه: ص 175
- 32 نفسه: ص 176
- 33 راجع مفهوم النظم في دلائل الإعجاز.

